آمنة عشاب / الصفحات: من 33 إلى: 38
الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر 2022م
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

سردية المدينة والأنساق الثقافية في رواية البيت الأندلسي لواسيني الأعرج

The narrative of the city and cultural patterns in the novel The Andalusian House by Wasini Al-Araj

دة. آمنة عشاب
جامعة حسيبة بن بوعلي –الشلف(الجزائر)
mimiachab@yahoo.fr

تاريخ الإيداع: 2022/12/01 تاريخ القبول:2022/12/04 تاريخ النشر: 2022/12/31

الملخص باللغة العربية:

شغلت المدينة كموضوع فنّي استقطابا كبيرا من قبل الروائيين والباحثين على حدّ سواء ، وهذا لما تعكسه من أبعاد دلالية على مختلف عناصر السّرد التي تخضع لنظام فنّي يحكم الرواية . حيث تتشكّل الصورة السّردية للمدينة تدريجيا ليكتمل نموّها باكتمال النسيج الروائي تكشف من خلاله عن أنساق ثقافية تعبّر عن فكر المجتمع باعتباره مرجعا روائيا.

تنهض رواية البيت الأندلسي لواسيني الأعرج على بنية مكانية كشفت عمّا يسمّى بـ" رواية المكان ". حيث يمثّل البيت بالنسبة لأبطال الرواية الانتماء والحضارة والإرث الدّيني الذّي تركه لهم أجدادهم الموريسكيون ، وقد شكّلت المدينة فضاءا أساسيا لبناء هذا البيت ، رغم ما تحمله من دلالات سلبية ، فوهران في الرواية مدينة النفي والسير نحو المجهول ، وغرناطة مدينة التعذيب والتهجير الإجباري ، أمّا الجزائر حيث يتواجد البيت الأندلسي بالقصبة السفلى يسودها الخوف والفزع والتهديد الدائم بالهدم .

هذه الثلاثية تكشف عن نسق ثقافي يرتبط بالذاكرة والتاريخ والبحث عن الانتماء الوجودي في مجتمع طغت عليه الماديات وبات لا ينظر لجوهر الأشياء، وقد برع الروائي في تصويره من خلال مخطوطة أوراق غاليلو" سيدي أحمد بن خليل " التّي حكى فيها عن أيّام الخروج الأكبر.

الكلمات المفتاحية : فضاء المدينة ، النسق الثقافي ، البيت الأندلسي.

Abstract :

The city, as an artistic subject, occupied a great deal of attraction by novelists and researchers alike, and this is due to the semantic dimensions it reflects on the various elements of the narration that are subject to an artistic system that governs the novel. Where the narrative image of the city is gradually formed to complete its growth with the completion of the fictional fabric, revealing through it cultural patterns that express the thought of society as a fictional reference.

The novel The Andalusian House of Wasini Al-Araj is based on a spatial structure that revealed what is called the "narration of the place" - where the house represents for the protagonists of the novel belonging, civilization, and the religious legacy left to them by their Moriscan ancestors, and the city formed a basic space for building this house, despite its negative connotations. Oran in the novel is the city of exile and walking towards the unknown, and Granada is the city of torture and forced displacement, while Algeria, where the Andalusian house is located in the Lower Casbah, is dominated by fear, panic, and the constant threat of demolition.

This trilogy reveals a cultural pattern linked to memory, history, and the search for existential affiliation in a society dominated by materialism and no longer paying attention to the essence of things.

Keywords: city space, cultural pattern, Andalusian house.

آمنة عشاب / الصفحات: من 33 إلى: 38
الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر 2022م
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

مقدمة:

تعدّ تيمة المدينة كموضوع فنّي له مكانة هامّة داخل النّص السّردي ، وهذا لما تمتلكه من كثافة سردية لها شفراتها وتأويلاتها التّي تتجدد باستمرار بتجدد القراءة وباختلاف القراء . فللمدينة سرديتها التي تعكس طلالها على مختلف عناصر السّرد حيث تتجاوز بنيتها كمكوّن فضائي لتكشف عن امتدادها التاريخي والحضاري والثقافي .

ماهية المدينة : تمثّل المدينة (فضاءا جغرافيا واجتماعيا تضمّ مجموعة من البنايات يسكنها عدد معتبر من البشر يشتغلون في نشاطات ذات طابع تجاري وصناعي وإداري)[1]فهي بذلك تتجاوز حدود المكان لتكون أكثر اتّساعا وانفتاحا تضمّ شبكة من العلاقات والقيم في مختلف المجالات .

إنّ المدينة (باعتبارها بنية جغرافية ومعمارية وتاريخية واجتماعية المؤسسة على التبادلات التجارية والإدارية والتواصل الإعلامي النّوعي تملك هويّة تحدّدها وبالتالي تتحدّد بها هويّة من يسكنها) [2] فللمدينة تأثيرها المباشر على قاطنيها والذّي ينعكس بصورة جلية فيكشف عن انتماءاتهم وثقافاتهم .

يُقيم الفرد بالضرورة علاقة ما مع مدينته التّي تعدّ مرجعا رئيسا لتكوين شخصيته ، فإذا تحدّدت هذه العلاقة في الألفة تكون روابط الانتماء قوية وتسمّى هذه الحالة بـ "التعشيش " la nidification[3] حيث تسود مشاعر المحبة وروح التعاون بين النّاس فتقوى الأواصر ليحيا الفرد بأمان في رحم المدينة .

وإذا غابت الألفة مع المكان ، يؤديّ هذا الغياب إلى الشعور بالضجر la dysphorie [4] ، وهو ما يجعل الفرد يشعر بالحرمان والرغبة في الرحيل بحثا عن مكان آمن يستقّر فيه ليمارس حياته بشكل طبيعي .

سردية المدينة في رواية البيت الأندلسي :

تعدّ المدينة فضاءا سرديا تنشأ بداخله علاقات شائكة ، وهي باعتبارها مسرحا للأحداث لها أبعادها السّردية والجمالية التّي تخضع للنظام الفنّي للعمل السّردي، حيث يبيّن السّارد صورة المدينة وفق رؤية فنيّة معيّنة يودّ تبليغها للقارئ . وليس من الضروري أن تتوافق الصورة السّردية للمدينة مع مرجعها الواقعي .

حيث يصبح للمدينة أبعادا خاصّة يضعها لها الروائي تكشف عن إيديولوجية ما يريد تمريرها وطرحها على القراء .

تأخذ المدينة بعدا جوهريا داخل الرواية إن لم نقل هي روحها ، حيث ارتبطت المدينة بالذاكرة والتاريخ الذّي عاشته الشخصيات وأبرزها شخصية سيدي أحمد بن خليل المدعو غاليلو صاحب المخطوطة التاريخية التي تروي هجرة الموريسكيين من الأندلس إلى الجزائر.

تتمثل المدينة في الرواية في ثلاثية هي : غرناطة، وهران، الجزائر في . تعبّر هذه الثلاثية عن مسار بطل الرواية صاحب المخطوطة التّي حرص مراد باسطا على رعايتها والاحتفاظ بها لأنّها إرث تاريخي وثقافي خلّفه له أجداده يحكي عن فترة التهجير القسري لموريسكي الأندلس .

1-الصورة السّردية لغرناطة : تمثّل البلد الأصلي للموريسكيين الذّين هُجّروا منها بسبب ديانتهم ، وذلك (في عام 1501أصدر الملك فرديناند وزوجته الملكة إيزابيلا، مرسوما ملكيا يقضي بضرورة تنصير المسلمين ، فحاول بعض مسلمي غرناطة الاحتجاج ببنود اتفاقية التسليم ، فإذا هي لم تعد تساوي قيمة الحبر الذّي كتبت به)[5].

إنّ التنفيذ الصّارم لهذا القانون أدّى إلى إخضاع المسلمين لمحاكم التفتيش وتعريضهم لمختلف أنواع العذاب مثلا (قام زبانية الكاردينال خمينيث، مطران طليطلة ، ورأس الكنيسة الإسبانية ، بالقبض على المسلمين لمجرد الشبهة وحشدهم في ساحة غرناطة الرئيسية .ثمّ إعدام مائتين من علماء المسلمين حرقا أمام الجميع ، حتّى يكونوا عبرة لغيرهم)[6].

بالإضافة إلى تهجير غالبيتهم مرغمين نحو سفن يهدّدها الموت . وكان من بين المهجرين " غاليلو الروخو " الّذي يرى بأنّ غرناطة هي أرضه ووطنه حيث يقول (فالأرض التّي يدفن فيها جدّك الأول والثاني والثالث ... والعاشر هي بالضرورة أرضك)[7].

لهذا حارب بكلّ قوته والتحق بجبال البشرات لأجل البقاء في هذه الأرض التّي ألفها ووجد فيها حبّه " سلطانة" فرسما حلمهما لبناء بيت يجمعهما يشبه البيت الموجود في أعالي هضبة غرناطة لكنّهما افترقا دون تنفيذ الحلم.

2 الصورة السّردية لـ " وهران " : تمثّل وهران في الرواية المدينة التي هُجّر نحوها الموريسكيون فهي بلد المنفى والمجهول فيقول " غاليلو " (متجها نحو فراغ جديد اسمه وهران)[8]، تملأه الحيرة والخوف لكن البقاء فيها والفرار من الموت يعتبر ضربة حظ في الحياة ، وفرصة للنجاة وخوض تجارب جديدة . وهو ما يذكره أحد شخوص الرواية لـ غاليلو (أنت تعرف أنّ وهران مدينة إسبانية ، ولا يوجد أيّ إشكال للاستقرار فيها ، يمكنك أن تعيش هناك ، وتتواصل مع من تحب في تلك المدينة) [9].

كما يصرّح " غاليلو" بقوله (كانت في الأفق وهران التّي تنتظرنا ، مدينة مليئة بالحيرة .قيل لنا إنّ أهاليكم هناك وسيحتفلون بكم ...) [10].

فوهران كانت أكثر أمنا من غرناطة لأنّها فسحت مجالا لبناء حياة جديدة يحلمون بها وان ابتعدوا عن أرضهم ووطنهم الأم، وهو ماجاء في نص الرواية (كنت أنا وأهلي سنبيع كلّ شيء ، أعمارنا وأموالنا، مقابل أن لا نفصل عن تلك الأرض التّي سرقت من تحت أرجلنا . ربما لم تكن لنا ولكنّنا بالتأكيد كنّا لها)[11].

3الصورة السردية للجزائر : يكشف التدفق السّردي للرواية عن الجزائر كمدينة لتجسيد الأحلام، حيث تمكّن غاليلو من بناء حلمه الذّي تقاسمه رفقة حبيبته "سلطانة "، والمتمثّل في تشييده للبيت الأندلسي الذّي عبّر عن اشتياقه لغرناطة . والجزائر مثّلت المدينة التّي خطى فيها غاليلو خطوات ثابتة نحو بناء مستقبله. فتمكّن من إيجاد عمل وشراء أرض لتجسيد حلمه .

النسق الثقافي للمدينة في الرواية : إنّ الاشتغال السّردي للمدينة في الرواية يكشف عن أنساقها الثقافية التّي تتولد داخل النّص السّردي، حيث (يتحدّد النسق عبر وظيفته، وليس عبر وجوده المجرد، والوظيفة النسقية لاتحدث إلاّ في وضع محدد ومقيّد، وهذا يكون حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب أحدهما طاهر والآخر مضمر، ويكون المضمر ناقضا وناسخا للطاهر . ويكون ذلك في نص واحد ، أو في ما هو في حكم النص الواحد، ويشترط في النص أن يكون جماليا، وأن يكون جماهيريا ، ولسنا نقصد الجمالي حسب الشرط النقدي المؤسساتي ، وإنّما الجمالي هو مااعتبرته الرعية الثقافية جميلا) [12].

وباعتبار الرواية نصا جماليا فهي تحمل أنساقا ثقافية يطرحها الروائي لتمرير أفكار معيّنة ، حيث يهدف النقد الثقافي (إلى كشف حيل الثقافة في تمرير أنساقها تحت أقنعة ووسائل خافية ، وأهمّ هذه الحيل هي الحيلة الجمالية التّي من تحتها يجري تمرير أخطر الأنساق وأشدّها تحكما فينا) [13].

وفي هذه الرواية نجد "واسيني الأعرج " يطرح قضايا تاريخية هامّة حيث يعود بالزمن إلى نحو ثمانية قرون مضت، فيستذكر فتح الأندلس موجها كلامه لطارق بن زياد في قوله (ستقول لي إنّك أنشأت ماشتهيته، ولكنّك بنيت لنا منفى وثمانية قرون من الأسئلة والحيرة التّي لم تنم يوما واحدا طوال هذا الزمن : متى نركب الريح مرغمين ونساق خارج هذه التربة) [14] ، فهو يتحدّث عن فتح الأندلس وماتعرّض له المسلمون من تهجير وتعذيب جاء نتيجة حروب الدّيانات ، وسعي كلّ فئة للتمسك بدينها .

كما يطرح قضية الامتداد الحضاري والانتماء الأندلسي لسكان الجزائر في قوله (ولكن لأنّ أصولنا موريسكية مثل الآلاف من سكان الجزائر) [15].

ومن بين القضايا التي طرحها أيضا قضية الأوضاع في البلاد وما آلت إليه من أحوال سيئة وهو مايشير إليه قائلا (البلاد منذ البداية سلكت الطريق الغلط . لا تبني حضارة بناس غير حضاريين) [16].

أمّا في توظيفه للبيت الأندلسي فهو يرى أنّ ما يتعرّض له من محاولات للسرقة والهدم يكشف عن وضع سيء تعيشه البلاد في قوله (عن البيت الأندلسي الذّي يقول إنّه اختزال للحالة المزرية التّي وصلت إليها البلاد) [17].

كما طرحت الرواية في بنيتها الثقافية قضية الاغتراب ، وذلك من خلال ماتعانيه شخوص الرواية . فالاغتراب هو (عملية صيرورة تتكوّن نتيجة وضع الفرد في البناء الاجتماعي وانعكاس ذلك على تصرفاته وفق الخيارات المتاحة أمامه)[18].

وهو شعور عاشه " غاليلو" صاحب البيت الذّي بذل جهده في تشييد نموذج عن بيت غرناطة . كما بيّن الروائي نوعا آخر من الاغتراب يرجع إلى سببين (يتصّل الأول بقضية الحرية وما يتعلّق بها من مداخلات السلطة السياسية والاجتماعية، ويتعلّق الثاني بصدمة المثقف بسبب تعثر المشروع النهضوي القومي) [19] ، ويمكننا إسقاط هذا النّوع من الاغتراب على كلّ من مراد باسطا، وسليم، فمراد باسطا حفيد غاليلو يتعرّض كلّ مرّة لمحاولات السرقة بالإضافة إلى رفع شكوى ضدّه لأجل تمكينهم من هدم بيته وبناء مركز تجاري كبير مكانه وهو مشروع تابع لشركة وطنية أجنبية مختلطة .

أمّا سليم فهو المثقف الذّي يحضّر لشهادة الدكتوراه في تحقيق المخطوطات، يتألّم لحال البلاد التّي لا تقدّس تراثها المادي واللامادّي . فالمادّي يكمن في البيت الأندلسي ، ونستدلّ على ذلك بالمقطع الآتي : (كشف تاريخ البيت ، هو كشف لكلّ الانهيار الذّي أحاط بالمدينة والبلد ، والبشر ، والتاريخ ، والحجارة التّي تخبئ تحتها أسرارا لا أحد يريد الكشف عنها) [20].

أمّا التراث اللامادي فيُظهر الروائي إهماله من خلال محاولات السرقة بحثا عن المخطوطة ، وهو ما يتحدّث عنه مراد باسطا في قوله (أنا أدرك جيدا أنّ الذّين يبيعون الرّمل والحديد والآثار ، لن يضيرهم في شيء أن يبيعوا مخطوطة عمرها حوالي خمسة قرون . وربما بثمن بخس)[21]، وهذا لأنّهم لا يقدّرون قيمتها التاريخية والثقافية.

نخلص ممّا سبق إلى أنّ توظيف المدينة في الرواية يتجاوز كونها فضاءا لمسرحة الأحداث فقط، لتصبح لها دلالات اجتماعية وتاريخية وثقافية فتتفاعل مع عناصر السّرد الأخرى في انسجام وتلاحم تام لتمرير أفكار معيّنة يطرحها الروائي في نص إبداعي جميل .وعلى القارئ تفكيك شفراتها والبحث في تأويلاتها .

هوامش البحث:

[1]داود محمد : المدينة في الرواية الجزائرية – الفضاء القسنطيني في رواية الزلزال ، -، مجلة إنسانيات ، ع:13 ، جانفي –أفريل 2001،ص:28

[2]المرجع نفسه ،ص: 28.

[3] Voir : nicolas grustave fischer :la psychologie de léspace-paris,puf(que – sais –je) ,1981,p :90

[4] Voir ;greninas :sèmiotique et sciences sociales ,paris- seuil ,1976,p :129-159

[5]الرواية ، ص 78، 79.

[6] الرواية ، ص: 109.

[7]الرواية ، ص: 92.

[8]الرواية ، ص: 92.

[9]الرواية ،ص:90.

[10]الرواية ، ص: 100.

[11]الرواية ، ص: 285.

[12]عبد الله الغذامي : النقد الثقافي – قراءة في الأنساق الثقافية – ، المركز الثقافي العربي ، ط3، 2005، ص:77

[13]المرجع نفسه ، ص: 77

[14]الرواية ، ص:

[15]الرواية ، ص: 7.

[16]الرواية ، ص: 216.

[17]الرواية ، ص: 223.

[18]حليم بركات : غربة المثقف العربي ، مجلة المستقبل العربي ، ع:2، تموز 1987، ص: 106.

[19]محمد راض جعفر: الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، 1999.

[20]الرواية ، ص: 223.

[21]الرواية ، ص 219.